تمثلات الآخـــر في الرّواية الليبية المُعاصـــرة ـ نماذج مختارة ـ دراسة تحليلية نقديـــة ـ

د. نجاة عمار حســـن الهمّالي ـ كلية التربية طرابلس ـ جامعة طرابلس
n.alhammali@uot.edu.ly

Representations of the Other in the Contemporary Libyan Novel Selected Models

Dr Najat Ammar Hasan Alhammali

ABSTRACT
The novel addresses societal and human issues, and from here it has acquired its importance and value. The Libyan novel keeps pace with the tremendous developments in the novel in the world in general and the Arab world in particular. Therefore, new titles have emerged that address issues of Libyan society and the individual during the various stages through which it has undergone significant changes. Among these issues is the issue of identity and the individual's relationship with the "other" in all its forms. To explore this topic, four examples of Libyan novels were selected: "This Is Me" by Sharifa al-Qaydi, "Disappearance" by Hisham Matar, and "Aydoun and the Colonel" by Kawthar al-Jahmi. These were studied and investigated for the types of "other" and how they are represented in Libyan novels. This was achieved through a research plan that identified the manifestations of the "other" in each novel, then framed the results and reached several conclusions, the most important of which is the presence of types of "other" in the novels under study. This was done according to a descriptive and analytical approach that tracks the presence of the "other" in literature and its representations in Libyan novels.
Keywords: Novel - Other - Libyan - This Is Me - Disappearance - Aydoun - Colonel

المُلخّـص:

تعنـــى الرّواية بطرح قضايا المجتمع والإنسان، ومن هنا اكتسبت أهميتها وقيمتها، والرواية الليبية تواكب التّطورات الهائلة للرواية في العالم عامة والعالم العربي خاصة؛ لذلك ظهرت عناوين جديد تطرح قضايا المجتمع والإنسان الليبي خلال مراحل مختلفة مر بها حدثت فيها تغيرات كبيرة؛ من هذه القضايا قضية الهوية

وعلاقة الفرد بالآخر بأنواعه.

وللبحث في هذا الموضوع تم اختيار أربعة نماذج للرواية الليبية: (هذه أنا) لشريفة القيادي، (اختفاء) لهشام مطر، (عايدون والعقيد) لكوثر الجهمي؛ لدراستها والبحث فيها عن أنواع الآخر وكيفية تمثله في الرواية الليبية، من خلال خطة بحث تم فيها حصر تمظهرات الآخر في كل رواية، ثم تأطير الحصيلة والوصول إلى نتائج أهمها توفر أنواع الآخر في الروايات قيد الدراسة، وذلك وفق المنهج الوصفي التحليلي الذي يتتبع حضور الآخر في الأدب، وتمثيلاته في الرواية الليبية

الكلمات المفتاحية: رواية – آخر –ليبية - هذه أنا-اختفاء- عايدون – العقيد

المقدمـــــــــة:

تعد الرواية جنسا أدبيا يعكس الصراعات الدائرة في المجتمعات، والرواية الليبية وثيقة الصلة بالواقع، تعكس الصراع الوجودي في مجتمع عانى لزمن طويل من الاستبداد، والانقسامات، ليكون "الآخر" جزءا من نسيج الهوية نفسها وليس مجرد طرف خارجي.

تأتي هذه الدراســـة لتبرز " الآخــر " وكيف تمظهر في المخيال الروائي الليبي، فقد سبق لروائيين عرب مناقشة الآخر اليهودي والآخر الغربي، وتم التركيز على معاناة العربي الفلسطيني جراء النظرة الدونية التي يتلقاها من المحتل والمستعمر، وتم طرح مشكلة الهوية من خلال ذلك، فانبثق سؤال كيف رأى الروائي الليبي هذا الآخر؟ وكيف كان تناوله له؟

مشكلة الدراسة وتســـــاؤلاتها:

نظرًا لتداخل السياقات في الروايات المختارة للبحث، وصعوبة الفصل بين ما هو سياسي واجتماعي، يواجه البحث تساؤلات عديدة إجابتها أساس وبناء له، منها:

كيف قدمت الرواية الليبية الآخر؟ هل هناك اختلاف بين الآخر عند الكاتبة الليبية، والآخر عند الكاتب الليبي؟ ما التحولات التي طرأت على الآخر عبر الزمن في مختلف الروايات الليبية؟ ما الآليات السردية والرمزية التي توظفها الرواية الليبية لتشكيل صورة الآخر؟ كيف يسهم " الآخر " في بلورة أزمة الهوية والسلطة؟ وما الصورة الأكثر إلحاحا عن الآخر في الروايات قيد الدراسة؟ كل تلك الأسئلة وغيرها كثير مما سيجيب عليها البحث في متنه.

سبب اختيار الموضوع:

من ذلك اخترت نماذج من الروايات الليبية المعاصرة للبحث عن (الآخر) وتجلياته فيها، فكانت رواية (هذه أنا) لشريفة القيادي[1](1994) و(رواية اختفاء) لهشام مطر[2] (2012) و(رواية عايدون(2019) والعقيد (2022) لكوثر الجهمي[3] محورا للدراسة التطبيقية.

الهدف:

تهدف الدراسة إلى الكشف عن الآليات السردية التي تبلور فيها مفهوم " الآخر "سواء كان نظاما مستبدا، أو نظاما قبليا منغلقا، أم امرأة مستضعفة، أو رجلا متخاذلا، أو ظالما أو عادلا أو مغتربا عائدا.

أهمية الدراسة:

تبرز هذه الدراسة ما تقدمه الرواية الليبية من نماذج فريدة لتفاعل الأدب مع التحولات التاريخية، وإعادة تشكيل مفهوم "الآخر" في سياقات متباينة، ودراسة الآخر تحيلنا إلى فهم الفكر الإنساني، والعلاقة التي تربطه بمن حوله.

الدّراسات السابقة:

تتنازع الدراسة وجهتين ؛ الأولى عن "الآخر " و الثانية عن الروايات الليبية قيد الدراسة ، فقد تناولت الدراسات النظرية الغربية "الآخر" ؛ فكان كتاب (معذبو الأرض) لفرانز فانون [4] (1961) من أوائل الكتب التي طرحت فكرة الآخر المستعمَر و المستعمِر، كذلك كتاب (الاستشراق(1995) لإدوارد سعيد[5] ، تناول مفهوم "الآخر" إذ رأى أن الغرب يصور الشرق "آخر" مغاير ثقافيا و سياسيا واجتماعيا ، وذلك لتعزيز سيطرته ويأتي كتاب (الفتنة والآخر) لشرف الدين ماجدولين (2012) مرجعا مهما وهو يتناول أنساق الغيرية في السرد العربي .

فضلا عن تلك المراجع من الكتب هناك أبحاث قدمت دراسات عن الذات و الآخر في الرواية العربية منها : بحث معنون (صور الآخر و قيم التعايش في السرد العربي المعاصر) لمحمد إدريس منشور في مجلة بحوث سيميائية ، وهو يدرس التعايش في المجتمع بين جميع أطيافه ، و بحث منشور في مجلة آفاق علمية تحت عنوان (صورة الآخر في الرواية العربية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح أنموذجا) للطفية سويفات ؛ وهو يتناول صورة الآخر في إحدى الروايات العربية، وجميعها تركّز عن الآخر اليهودي ؛ لذلك تعد تلك الدّراسات مراجع لا تغني عن

هذه الدراسة التي تتناول الرواية الليبية، وتبحث في صور الآخر التي تمثلت فيها .
ولإنجاز الدراسة كما ينبغي صيغت خطة تصدرتها مقدمة تحتوي على أهمية الدراسة والهدف منها وتساؤلات البحث والدراسات السابقة.

الدراسة النظرية: فيها التعريف بمفهوم الآخر لغة واصطلاحا

الدراسة التطبيقية: فيها تحليل شخصية الآخر في الروايات قيد الدراسة، وفك مقصدية الرموز والإيحاءات التي تعمدها الكتّاب، ودراسة الآخر صوتا نسائيا رافضا للهيمنة الاجتماعية، مع بيان التقاطعات والاختلافات بين الروايات في تمثلات الآخر، ويختم البحث بخاتمة تحوي النتائج والتوصيات التي توصلت إليها، يليها مسرد بالهوامش يحوي المصادر والمراجع.

منهج الدراسة:

ستتم الدراسة وفق المنهج الوصفي التحليلي مع مقاربة مناهج أخرى تحتاجها لتفتح سبل الدراسة كالمنهج النفسي والاجتماعي والتاريخي والسيميائي، بحسب الحاجة إليها.

صعوبات الدراسة:

ندرة المصادر النقدية التي تتناول دراسة الرواية الليبية؛ لذلك سيكون الاعتماد على التحليل النصي المباشر للروايات قيد الدراسة.

الدراســـــــة النظريـــــــة:

مفهوم الآخَـــــــــر:

لغـــة: تأتـــي كلمة :(آخَـــــر) بفتح الخاء بمعنى: غير، أو شيء غير الأول، جمعه آخَـــرون (6) وتعني : الغير، مؤنثه أُخْـرَى وأخراه جمعها أُخْرَيات وأُخَر (7) وهو "أحد الشيئين، ويكونان من جنس واحد" (8)، أي: أن من يطلق عليه الآخر هو غيرنا الذي من جنسنا، وربما يكون شبيهنا الذي لا يماثلنا بل هو المقابل لنا في خط متوازٍ معنا

اصطـــــلاحا: إنه المختلف بشكل أساسي عن (نحـــن)، والآخر المستبعد هو الغريب الذي يستخدم لغة مشتركة ويفهمها (9)، وهو المختلف عن الجنس أو الانتماء الديني أو الفكري أو العرقي (10) ، وهو ما سوى النفس (11) فهو ذاك المقابل، المغاير لنا في الثقافة وقد يكون أحيانا مشتركا معنا في اللغة والدين، ولكنه مختلف في كل شيء، وليس بالضرورة أن يكون عدوا، ولكنه قد يكون كذلك، وفي كثير من الأحيان

يحتاج الإنسان إلى الآخر المختلف كي يتوصل إلى فهم ذاته.

الدراســــــــة التطبيقية:

الآخر في الرواية الليبية:

أولا ـ الآخــر في رواية (هذه أنا) لشريفة القيادي:

تمثلات الآخــــر:

1- الرجـــل: من الأسطر الأولى في الرواية تجاهر البطلة بالعداء للآخر وهو هنا (الرجل) (ويجيئها صوت هامس لرجل، أأنتِ بخير الآن؟ ارتجفت، لم تلحظ وجوده في البداية ...)[12] يستغرب المتلقي من ردة فعلها إزاء الرجل الذي لم يصدر أي فعل عدائي اتجاهها، سأل عن حالتها بعد استيقاظها من غيبوبتها، لكن ردة فعلها العنيفة وطردها له يستوجب التفكير، فربما هي تراكمات لا نعلمها (...سألها في هدوء أأنت بحاجة للراحة؟ وأجابته في حدة خفيفة: نعم اخرج من هنا حالا... ولم تتكلم واحدة، لكنه عاد يسأل في شبه استغراب: أنا أخرج ؟! ردت في جفاء: نعم أنت لا أحد غيرك.. أرجوك اخرج حالا ...)[13] من خلال الأسطر التالية في الرواية نعلم بأن هذا الرجل هو طبيبها، ويشرف على علاجها، فلم كل تلك الحدة في المعاملة؟!

ومعاملتها له ناتج عن علاقتها السيئة بزوجها الذي جعلها تكره كل الرجال، فيصبح الرجل (آخر عدوا) لجنس المرأة، على الرغم من قربه لها فهو زوجها، ولكنه جعلها في صراع مع ذاتها ومع قيمها وموروثها الأخلاقي، كل ذلك جعلها تُسقط عليه أخطاءها، وتجعله وكل بني جنسه "آخر" (عدو)، لمجرد اختلافه معها فكريا، فهو يحترم آدميتها ويعاملها بلطف، فكيف يصير عدوا وتطرده من جنتها؟ لكن بتتبع أحداث الرواية نجد أن المرأة هنا أنانية، وأحادية النظرة، فذات الرجل عندما أرضاها أحست بأنها وهو واحد (شعرت بأنني في أعماق الإنسان الذي عرفت بالغريزة –ربما-بأنه الذي يسعدني [14] وعندما حدث سوء فهم بينها وبينه صار "آخر غريبا"، ولكن ما يتحكم في المشاعر في كثير من الأحيان الخلفية الثقافية والمعرفية، فتكون الصدمة كبيرة جدا عند اكتشاف تلك الفجوة (ما الذي كنت تشربه هذه الليلة ؟...أهو خمر؟! و هز رأسه إيجابا ...)[15] الصدمة التي تلقتها وضعت شرخا في علاقتها بزوجها ، وحبها له ، و معاملته الراقية لها ، لم يشفعا له عندها ، فقد خرق المقدس و دنس ما رأته كاملا نقيا (...لقد بدا لي سالم أنموذجا للرجال)[16] وفي مكان آخر تقول : (...سالم نفسه قد أضفى على أيامي البهاء و الراحة ...)[17]؛ ولكن

اكتشافها له أنه يشرب الخمر وفي هذا معصية للأمر الإلهي، و إخلافه لوعده لها بتركه ، ثم سهراته مع أصدقائه و عودته متأخرا و رائحة الخمر تفوح منه جعلتها تشعر بالإحباط ، و خيبة الأمل كيف يكون زوجها على هذه الشاكلة التي لا تحتملها . ربما يرى المتلقي أنها تبالغ في موقفها من زوجها، فهو لم يؤذها، فلم كل هذا الإحساس الفائض إلى درجة المرض لكون زوجها يحتسي الخمر مع أصدقائه؟ ولكن سنجد في أسطر تالية من الرواية أن هناك ما يبرر ثورتها ، فهي ترى والدها في زوجها (إن صورة الآخر ليست هي الآخر نفسه بل مفهومه و انعكاسه في الذات)[18]، فهي تخشى أن تتكرر مأساة أمها معها (كيف صرنا نحن نبيت في حيرة في بعض الليالي التي يخرج فيها أبي للسهر خارجا ...)[19]، فالرجل هو والدها وهو زوج - أيضا- ، و قد رأتْ تدهور حال والدتها وعائلتها بسببين ؛ الأول سهره خارج البيت ، ثم رجوعه إلى البيت آخر الليل مترنحًا، و ما يزيد الأمر سوءًا هو معاملته لهن هي و أخواتها (أرقب المشهد الذي أثار حفيظتي و حنقي ، عائشة على الأرض على ركبتيها وضفيرتيها معا في إحدى يدي أبي، بينما يده الأخرى تصفعها وتضربها بشراسة)[20]، فهي دون أن تشــعر تُسقط ما آل إليه حال أهلها بسبب سهر والدها و معاشرته لرفاق الســوء و معاقرة الخمر على حياتها مع زوجها و ترى أنها الصورة المعكوسة لوالدتها ، وزوجها سيكون شبيها لوالدها .

خلاصة القول : إن تمثلات الآخر عند الكاتبة هي (الرجل) في صورة الأب والزوج ، و هي عدائية بسبب تراكمات اجتماعية واستعداد نفسي مسبق للمرأة بطلة الرواية ، بأن يكون أي رجل شبيها لوالدها، فقد ركّزت على جانب واحد سيئ في زوجها لارتباطه بفكرة في ذهنها تراكمت لتدّمر صحتها ، تلك الفكرة أن والدها أفسد حياة والدتها بسهره، و احتسائه للخمر، فسيطر الخوف في اللاوعي من فكرة أن تنتهي حياتها بخيبات كما والدتها ولم تنتبه إلى أن زوجها مختلف عن والدها فقد كان يعاملها بمحبة و احترام على العكس من معاملة والدها لوالدتها .

ونلحظ تناقضًا في مشاعرها، وأحكامها حيال هذا الرجل الزوج؛ فهو " الآخر" الحبيب الذي حمّلته سبب سعادتها وفرحها، وكل معرفتها بالحياة، وإحساسها بطعم الحرية، وهو رجل أيضا، فكيف تسيطر فكرة واحدة تدمر بها حياة قدم فيها الرجل ما بوسعه لتكون مريحة.

كما وضعت ملاحظاتها على (الآخر الأجنبي) وهي تزور إيطاليا فتقول:(...ولأن

الشارع مزدحم ، فإنني انشغلت بشق طريقي أمامه وسط الزحام الوجوه لا معنى لها، تبدو باهتة تماما، و لم أشعر بالحب تجاهها، كما لو كانوا كلهم أعدائي، كلهم أعدائي الذين يصوبون نحوي رؤوس حرابهم المسنونة، ويكشرون عن أنيابهم الصفراء الحادة وينتظرون الفرصة التي يغرزون فيها هذه الأنياب في لحم عنقي لامتصاص دمي)[21] هنا يبدو المخزون الثقافي الشعبي والموروث الإعلامي بأن الآخر لا يكون إلا بشعا ، على الرغم من أنهم لم يفعلوا معها ما تكرههم لأجله ، أو أن تراهم أعداء لها، وتصفهم بكل تلك البشاعة ، فوصفتهم بحسب موروثها المعرفي

ثانيا ـ الآخـــر في روايتي "عايدون" و " العقيد " لكوثر الجهمـــي :

الآخر المختلف: تطـــرح رواية "عايدون" قضية مهمة لم يلتفت إليها أحد سابقا، رغم أنها موجودة منذ زمن، وهي قضية أولئك الذين نزحوا عن ليبيا إبان الاحتلال الإيطالي، ثم عادوا بعد اكتشاف النفط إلى البلاد ومعهم ثقافة ولهجة مختلفة؛ بل وعادات مختلفة -أيضا-، فعوملوا من الناس معاملة مواطن من الدرجة الثانية، وكانت النظرة إليهم نظرة دونية فيها الكثير من الاحتقار، ما خلق ثنائيات " الأصلي " و " الوافد ".

فهنا تكون شخصية الجارة (غزالة) وابنتها (حسناء) محورا أساسيا في الرواية التي بدأت معها الأحداث من الصفحة الأولى، حيث طرحت الاختلاف الأول الذي صادفها (رأيتها تدخن كالرجال! عار !)[22] ففي المجتمع الليبي لا توجد مدخنات نساء وإن وجدن فلا يجاهـــرن بالتدخين، ودائما ردة الفعل متشابهة لدى أغلب الليبيين (... استغرب والدي وعبّر عن استغرابه بنظرة اشمئزاز، أمي اعتبرته أمرا طبيعيا لكون خالتي غزالة ووالدها " عايدون " من سوريا)[23] لاتزال الأم تتذكر التنمر على ابنتها من زميلات الدراسة؛ لأنها عايدون (اذهبي لبلادك ولا تنازعينا في بلادنا)[24] هكذا كانت النظرة للآخر المختلف، نظرة فيها إجحاف وطغيان وكثير من العنصرية، وهنا السؤال الذي يستبد بنا، لماذا كل هذا الحنق على العائدين والتنمر عليهم؟ وكانت الإجابة حاضرة في الرواية منذ بدايتها وحتى انتهائها.

وهناك آخر لابد من ذكره يبدو مختلفا بمظهره وفكره، ويبدو ككتلة من الشـــر، لا يمكن أن يكون للأمان معنى في نفسك وأنت المختلف عنهم بينهم " العسكر" (جاء الآخر صاحب بنية هزيلة؛ لكنه يبدو واثقا معتدا بملاءمة الزي العسكري له) [25] هذا الآخر كان رمزا للأمن والأمان، فكيف تغيرت الأمور وصار ببزته مثارا للخوف وعدم الأمان؟ فهو من اختطف "حسناء " لأنها مارست حريتها في الكتابة على

مواقع التواصل الاجتماعي، فكان لابد من قمعها وإخراسها بتلك الطريقة المرعبة، لذلك كانت صورته قاتمة في ذهنها ببزته العسكرية، لكن تصرفه معها أربك تلك الصورة القاتمة (لم أستطع أن أحقد عليه كما أفعل عادة تجاه كل من يرتدي بزة عسكرية ...ولكنني لم أستطع أن أشعر بالامتنان الكامل نحوه -أيضا-؛ لقد أنقذني وجنب والدتي ذل الاعتقال...)[26] إذن قد تتغير صورة الآخر التي رُسمت في الأذهان لعوامل عديدة منها حُسن المعاملة واحترام آدمية البشر وحقوقهم..

الآخر هو الأجنبي المستعمر الإيطالي في هذه الرواية (والدي يا بنتي ، ممن شنقوا في أول حملة إعدامات نفذها الإيطاليون إثر مقاومة أبداها الليبيون بعد نزولهم ..)[27] . هذا الطفل كيف ستتكون أفكاره عن الآخر المختلف ، فوالده شنقه الإيطاليون ، عايش زمن دخول الطليان إلى طرابلس و قصفهم لها ، وإثارتهم للفزع بين الناس الآمنين (... كان في قلبي حقد غير معلن تجاه المحتل...)[28] كثيرة هي المفارقات التي ترافق ذكر "الآخر" فنجد الإيطالي عدوا لأنه مستعمر، ولكنه -أيضا- معلم يعلم أعداءه في موطنهم ، ثم يرافق كل ما سبق ذكر قضية لم يتناولها أحد سابقا وهي طرد الإيطاليين الذين ولدوا في ليبيا (ولا أحب الخوض حتى في شأن الطليان الذين ولدوا هنا و لم يعرفوا إلا ليبيا وطنا وإن اختلفت ألسنتهم ، ثم طردوا بعيدا حيث مسقط رأس آبائهم)[29] فالآخر يأخذ أبعاد عديدة في الرواية وهي تظهره مظلوما مسلوب الحقوق و الإرادة، كأن الكاتبة تود ذكر الواقع من وجهات نظر متعددة ، أو ثنائية الخير و الشر و السلب و الإيجاب إنصافا و عدلا .

وفي روايتها "العقيد" وهي امتداد لرواية عايدون، رغـم أن الكاتبة لم تشر إلى ذلك، ولكن المتلقي يستطيع أن يتوصل إلى كونها جزءا ثانيا من خلال تتبع الشخوص والأحداث، ومن المفارقات أن يكون الأجنبي صديقا، يمد يد العون لصديقه العربي (لقد عدتُ يا صديقي من ليبيا بذاكرة موجعة، و بقلب محطم ...)[30] فـ: "توماس" الأمريكي يساعد الليبي " آدم" و يمد له يد المساعدة في إعداده لكتاب يحمل سيرة والده الذي قتل في أمريكا (عزيزي توماس ... كما نصحتني ؛سيكون كتابي سيرة متنكرة في صورة رواية ...)[31] فهو يتلقى النصح منه ، و في ذات الوقت تصور الأجنبي قاتلا مأجورا قتل أباه (لفت نظري –على سبيل المثال – كهل بعين واحدة ...حين سألتُ برْكة أخبرني بأنه عجوز مهاجر من إحدى دول الاتحاد السوفييتي السابق ، هارب من الفقر و العوز ...)[32]

تطــرح الروايتان-أيضا- الآخر الخائن؛ ولكن الخائن في رواية "عايدون" يختلف عن الخائن في رواية "العقيد" (أقول لك حقيقة ، يا بنتي، ما كان الطليان ليجدوا موطئ قدم لولا التهاون و الخيانة)[33] فالخائن ليس غريبا ، إنه من نسيج المجتمع ، فلا تقف عنده طويلا ، فقط في إشارة سريعة على لسان الأب ، ربما لأن ثقافة التخوين لم تطل فكر الكاتبة ، و لكنها تومئ في بعض المواقف إلى وجودهم بطريقة أو بأخرى (...لم نكن نمقت المجاهدين كما حاول بعض أعيان المدينة ممن والو الطليان إقناعنا؛ إذ حاولوا أن يزرعوا فينا اليقين بأن الاستسلام هو أفضل الخيارات ...)[34]، فأظهرت أعيان المدينة الذين يثق فيهم أهل البلاد في خدمة المستعمر؛ بمحاولاتهم اليائسة بإقناع الناس بالاستسلام ، فمن الخيانة أن تنصر عدوك ضد أهلك .

وتصوّر الآخر الخائن في رواية "العقيد" بشكل مختلف ، فقد لا يكون من ينعت بالخيانة خائنا حقيقة، و لكنه ينعت بالخيانة فقط لأن آراءه اختلفت عمن حوله ،كما حدث مع والد "آدم " الذي وصف بالخيانة و اغتيل لمجرد اختلافه في الرأي ، و محاولته الخروج عن جماعة المعارضة ، و قراره بالعودة إلى البلاد (هز العجوز رأسه فهما ، فيما ازداد نفور شامته و احمرت المنطقة المحيطة بها :"ليس ثمة مبرر لخيانة الوطن ...و ليس ثمة ما يغفرها ")[35] فهنا من يوصف بالخائن أحد المعارضين للنظام السابق في ليبيا، ولكنه قرر العودة إلى الوطن وترك المعارضة، فعُد قراره خيانة وطن ، حيث صارت المعارضة هي الوطن في عرفهم !

وأحيانا تطـرح" آخر" قد عُرف في ثقافتنا وعرفنا العربي المسلم بأنه عدو لا يرجى منه خير، فكثيرًا ما نُحذر من اليهود و خيانتهم، إلا أننا نجد اليهودي (هارون) قد قدم خدمة جليلة لشاب ليبي مسلم قتل إيطاليًا في حانته ، و بدلا من أن يشي به و صديقه ، صمت عن هروبه ، و أخفى صديقه عنده (..وإلى يومنا ، أتجنب الخوض في الحديث عن اليهود الليبيين بسوء، لأن هارون المتضرر والشاهد على ما فعلته لم يكن هو من وشي بي ...)[36] فيظهر هذا الآخر السيئ في المخيال العربي كل هذه الشهامة فيقلب الموازين عند الشاب ،فلم يعد يرى فيه عدوا كما تعلّم ممن حوله ، و هذه مفارقة فالآخر يأخذ أبعادا عديدة في الرواية ، تضع من خلاله كثيرا من القضايا على المحك .

أحيانا يصير الإنسان آخــر بالنسبة لأهله بغربته ، وهجرته من المكان المعتاد إلى مكان مختلف يعيش فيه اختيارا أو قسرا، مثلما حدث "لآدم" في رواية "العقيد" الذي

ولد في المهجر الأمريكي، ولكنه قرر العودة للوطن حتى يتعرف على أهله مما يمكنه من الحصول على معلومات تفيده في كتابه ، وربما هذا الارتحال هو (تشوفا إلى تذويت الغير واستعادته إلى ذاكرة الشخصي كجزء ملتبس من تكوينه)[37] فصار مختلفا بالنسبة لأخته في بلاده الأصلية من زوجة أبيه الأولى ، وهو آخر وافد مختلف بالنسبة لعمه وأبناء عمومته الذين قضوا عمرهم في داخل البلاد(لقد عاملني عمي كما يعامل محقق الشرطة شخصا متهما)[38] فهو تتنازعه هويتان؛ الليبي بالأصل و العرق،، والأمريكي بالجنسية و المولد و النشأة و المعرفة و الثقافة ، وقد حاول أن يَعْبر من الثبات المكاني و الثقافي ، بسفره إلى بلاده لاستعادة ذاكرة تاه عنها زمنا طويلا ، قد تساعده في مشروعه و حلمه أن يدون سيرة حياة أبيه في كتاب .

الآخر في رواية اختفاء لهشام مطر:

هناك تساؤل ألح على الباحثة أثناء الاطلاع على رواية اختفاء واختيارها نموذجا لدراسة الرواية الليبية، هل تعد هذه الرواية ومثيلاتها ضمن الأدب الليبي أم هو أدب أمريكي لأنه كتب بلغتهم وولد في بيئتهم؟ وظل البحث عن إجابة مقنعة طويلا حتى عثرت على كتاب محمود قاسم الذي وجدت فيه الإجابة التي تريد؛ يقول محمود قاسم: (الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية ليس أبدا أدبا فرنسيا، رغم أنه مكتوب باللغةالفرنسية ومنشور في دور النشر الفرنسية، لكن اللغة لا تصنع أبدا هوية قومية مختلفة للكاتب الذي ولد عربيا)[39] على ذلك تم اختيار الرواية.

الآخر والسلطة: يعلن الراوي" نوري" بأن والده " كمال الألفي" اختفى في ظروف غامضة وهو في بلد أجنبي "سويسرا " اختطف ولم يتوصل أحد إلى أي خبر عنه، حتى الدولة السويسرية عجزت عن ذلك.

فالآخر هنا يتنازعه اثنان عند المتلقي و قبله الراوي ؛ الأجنبي ، و السلطة الحاكمة في بلاده ، المفارقة أنه تعرف على الآخر الأجنبي، فاحتوى أحزانه وألمه، ووقف معه في أحلك الأوقات، وهي ليلة خطف والده؛ المحامي "تشارلي هاس " محامي الأسرة الذي مد لهم يد المساعدة بإخلاص [40]، وهناك الأجنبي اللامبالي المتمثل في الشرطة الذين يقومون بعملهم دون أن يتعاطفوا مع أهل المخطوف (إننا نبذل أقصى ما في وسعنا)[41] وأحيانا يراوغونهم في إجاباتهم مما جعل زوجة أب الراوي تنعتهم بـ : (أولاد الحرام)[42] وهناك - أيضا - مدير المدرسة والسيد "جيلبيرث " اللذان تفهما وضع نوري الخاص و وعدا بكتمان حادثة خطف والده ،

حفاظا على مشاعره و خصوصيته، و أيضا في ذات المدرسة صديقه " أليكسي " الآخر الذي كان يتقاسم معه الأسرار و الأفكار ، و لم يشعر بغربة أو بخوف معه ، أو باختلاف ، ربما لأنهما تشاركا اللغة و المكان و الزمن ، و لم تكن لهما خلقية مرجعية تحذر من الآخر المختلف في الدين و العرق و اللون ..

وفي المقابل يكون الأذى من "آخر" من نفس جنسه وبلاده، فعند اختطاف والد نوري توجهت الأنظار نحو الآخر المستبد، فكان الاتهام من قبل أقارب المخطوف موجها نحو السلطة الليبية، حيث يبرز الآخر المستبد، صاحب السلطة (هناك احتمال كبير أن من أخذوه من بلادنا، أعني من يحكمون البلد الآن)[43] ، هذا الاتهام هو حصيلة تراكم الوعي بالآخر المستبد وإلى أي مدى يكون استبداده، فالمرء يكون (ابن أوهامه و ثوابته ، التي تتشكل لديه عبر الثقافة ووسائل الإعلام والتربية) [44]

زوجة الأب" منى" وصديقته "بياتريس" تقاسمتا " كمال الألفي" كلتاهما كانتا غريبتين عن "نوري" ، ولكنه تعرف إلى زوجة أبيه قبل وفاته وأحبها، وصار الود متبادلا بينهما، لكن يوم اختفاء والده ظهرت صديقة بقيت في ذهنه "الآخر" الممزوج بالغموض و إثارة الريبة حولها أن تكون مشتركة في حادثة خطف والده ، و من ثم اختفائه ، ولم يتمكن من التعرف إليها إلا بعد مرور عشر سنوات؛ حيث عاد إلى المكان الذي خُطف منه والده، و طلب إلى المحامي أن يعرفه بها ، فالتقيا صدفة في الشارع حيث كان المحامي برفقتها وهو هائما يفكّر كيف يمكنه لقاؤها .

في ذات الوقت كان " نوري " آخر غامض يجلس وحيدا في المقهى بالنسبة للنادل و"بياتريس" التي لمحته من بعيد وأحست أنه عربي يراقبها فتوجست خيفة منه (لقد كنت في غاية القلق منذ يومين سابقين حين مرت بي لتخبرني بأن هناك رجلا مثيرا للريبة بالمقهى، رجلا يبدو عربيا يتظاهر بالقراءة في صحيفة)[45] فعدم معرفة "بياتريس" "لنوري" رأته رجلا مخيفا يريد إيذاءها، و تجربتها المرة مع الآخر الغريب الذي اختطف صديقها" والد نوري " أمام عينيها جعلها في حالة جزع وترقب أن يتكرر معها ما حدث سابقا (...يبدو كأن الأشخاص الذين أخذوا والدك لن يقفوا عند حد)[46]، وسرعان ما تبدد الخوف عند معرفتها لشخصه ، و أنه ابن كمال صديقها المخطوف، وصار مصدر سعادة لها بعد لقائها به و تحدثها معه (سيد نوري، لابد أن أشكرك لقد جعلت "بياتريس " سعيدة للمرة الأولى منذ زمن طويل . أرجو حقا أن تبقى على اتصال)[47] فنجد أن الراوي جعل علاقته بالآخر المتمثل في

"بياتريس" صديقة والده علاقة تناظر، وتفاوض وتعايش لا قطيعة وصدود، لأن الآخر قد يكون "أنا" آخر في بعض الأحيان.(48)

تأطـــــــير:

طرحت الرّوايات المنتخبة لهذه الدراسة "الآخـــر" بأنواعه: (البيولوجـــي والسياسي والاجتماعي) ، فكان عند شريفة القيادي الأب و الزوج من خلال علاقتهما بالمرأة (الزوجة و الابنة و الأخت)، وتبرز معاناة الأنثى مع الأب ، ونلمح تحاملا على الرجل "أب وزوج " في هذه الرواية ، فالأب رغم ما تتحدث عنه الرواية كونه قاسيا، فهو لم يجبر بناته على ما لا يردنه، و لم يقهر زوجته "والدتهن" بامرأة أخرى برغم عدم انجابها لذكر، وهو المتعطش أن يكون لديه ابن ذكر إلى جانب بناته، كذلك الزوج لم يكن قاسيا مع بطلة القصة، وحكمها على الرجل بالتعنت جاء نتاجا للأنا العالية لديها و ليس لسوء بالآخر.

هذا الثنائي (الرجل و المرأة ، إالذكر و الأنثى) الذي ارتكزت عليه رواية "هذه أنا " جاء هامشيا في رواية " اختفاء " على تعدد أشكالها في الرواية ، لأن الدور بسيط لكل النساء فيها و متصالح مع الآخر ، فالزوجة أم "نوري" كانت لها مكانتها في بيتها و لا شكوى أو أي صوت لها خارج علاقتها الطبيعية بزوجها ، و هناك " نعيمة" الخادمة التي ربت "نوري" أو ساهمت بتربيته و اهتمامها به داخل إطار اجتماعي محدود ، و نستطيع أن نقرأ بين السطور أنها ربما تكون أمه الحقيقية ، التي أنجبته ، و يفترض هذا الاعتقاد وصايا والده و صديقه بعدم ترك نعيمة و ضرورة السؤال عنها ، و تأتي "منى" الزوجة الثانية ل"كمال الألفي " التي تزوجها بعد وفاة زوجته ، أحبها " نوري" و لم يتعامل معها كآخر عدو" زوجة الأب " كما في العرف المجتمعي في علاقة زوجة الأب بأبناء زوجها ، فكان دورها أيضا هامشيا مثل " بياتريس " التي تمثل الآخر الأجنبي التي لم ير فيها " نوري "الآخر العدو لأنها لم تؤذه ، بل كانت ودودة معه ، فالراوي جعل علاقة "الأب /الرجل" بنسائه متوازنة ، و لم تكن هناك علاقة على حساب علاقة أخرى ، أي أنه كان يقف في مستوى واحد في علاقته مع من حوله من نساء ، مما أبعد الضغينة أو الكره بين من حوله ، أما في رواية "عايدون " فالمرتكز و المحور الذي تدور حوله الرواية كانت المرأة الزوجة التي عانت الأمرين من معاملة أهل زوجها الرافضين لها كونها " عايدون " و كذلك من نظرة المجتمع الدونية لها لمجرد أنها تربت مع أهلها في بلاد أخرى ، و عادت بفكر مغاير و ثقافة مختلفة جعلت منها آخر محتقرا ، و كل

الرواية تطرح معاناة هذه المرأة و ابنتها في ظل ثقافة الأنا المتفوقة دائما على الآخر المختلف و المغاير لها ، و في رواية " العقيد" حضرت الزوجة الثانية الغيور و ابنها الذي لا يرى في زوجة أبيه الأولى " آخر" سيئا فتعرف عليها ، و صارت علاقة الود هي السائدة بينهما ، و هو- أيضا - الأخ الودود لأخته من أبيه .

أما الأجنبي في رواية "هذه أنا" فلم يكن محورا مركزيا فيها ومع ذلك نلحظ تأثر الراوية بالفكر المجتمعي الذي يرسم صورة العدو للآخر المختلف، وذلك عندما وصفت المكان المختلف ومن فيه بأنها لا تــرى فيهم إلا أعداء يصوبون حرابهم نحوها.

بينما أظهرت رواية "عايدون" و"العقيد" و"اختفاء" الأجنبي بصورة الصديق والآخر المقرّب والمحب والمخلص لعمله، أما "الآخر" المستعمر فالصورة السلبية له في جميع الروايات، واتفقت هذه الروايات على" الآخر" المستبد المتمثل في السلطة، والذي تشاركت فيه رواية اختفاء، ورواية العقيد حيث يكون الإقصاء والتغييب عما الحل الذي يلجأ له المستبد، وهو في الروايتين يكون الخطف، والاغتيال.

الخاتمـــــــة:

وصلت الدراسة إلى عدد من النتائج تصحبها توصيات وهي كالآتي:

أولا ـ النتائج:

ـ تشهد الرواية الليبية تطورا ملحوظا في الكم والكيف بشكل لافت خلال السنوات الأخيرة.

ـ تناولت الروايات موضوعات جديدة في الأدب الليبي خاصة والأدب العربي عامة مثل رواية " عايدون " التي طرحت موضوعا لم يسبق إليه أحد بحسب علم الباحثة.

ـ ظهور عدد ملحوظ لكاتبات فرضن أنفسهن على الساحة الأدبية العربية والليبية بما قدمنه.

ـ تعد الرّوايات قيد الدراسة من ضمن روايات السير الذاتية.

ـ طرحت الروايات قضايا الآخر المختلف بيولوجيا (الرجل، المرأة) والمختلف سياسيا (السلطة، المستعمر) والمختلف عرقيا (الأجنبي).

ـ تنوعت تمثلات الآخر في الروايات بحسب زمن النشر؛ فجاء الآخر في رواية" هذه أنا" 1994م تقليديا في الفكرة والطرح، بينما اختلفت الروايات " اختفاء 2012"

و" عائدون ،2019" و " العقيد 2022" في الفكرة والطرح وإن اتفقت في الآخر المستبد.

رواية " العقيد" لكوثر الجهمي أبانت عن تطور ملحوظ في الأسلوب وفي معالجة الظواهر التي تطرحها، وفنية الرواية بصفة عامة من شخوص وحبكة وبداية ونهاية.

في رواية "اختفاء " تصالح مع الآخر الأجنبي وهذا دليل على انفتاح الكاتب على الآخر، وأن التعصب ليس جزءا من مرجعيته الثقافية.

لامس الآخر في كل الروايات الواقع لدى كل كاتب، وربما الرؤية إلى الآخر" الأجنبي " بطريقة إيجابية تحمل الثقة و الإعجاب بل والمحبة أيضا جاءت في رواية اختفاء بشكل واضح ربما لأن الكاتب يعيش في بلاد الغربة فتعايش معه وليس في أفكاره ولا تكوينه ما يجعله يكره هذا الآخر الأجنبي، بينما كاتبة رواية " هذه أنا" صرحت أنها تكرههم على الرغم من عدم احتكاكها بهم، لكن خلفيتها الثقافية عن الأجنبي هو ما جعلها تلقي بالأحكام جزافا.

ـ على ما نلحظه من تطور لافت للرواية الليبية فالسمة الغالبة على أساليب كتابها المباشرة في الطرح، والفكرة المسيطرة تقود الكاتب وليس العكس، ربما لأنها أقرب إلى السير الذاتية الخيال فيها لا يتجاوز ما يربط بين الأحداث وبعض الأسماء المستعارة.

ـ يلجأ الكتاب لأغراض عديدة إلى اللهجة العامية الليبية في توظيف المفردات ربما للإيحاء بواقعية الأحداث، كما في رواية كوثر الجهمي (عايدون) كتبتها كما تنطق باللهجة الليبية وتكتب بالفصحى (عايدون) .

ثانيا ـ التوصيات:

ـ الروايات نماذج الدراسة أرض خصبة لدراسات عديدة في بنائها وفنيتها.

ـ تدرس رواية هذه أنا وعائدون والعقيد في إطار تطور الأدب النسوي في ليبيا.

ـ الروايات فضاء واسع لدراسات سيميائية عن العنوان وعتبات النص.

ـ دراسة أدب الاغتراب، وهو الأدب الليبي الذي كتب بأقلام ليبية وولد في أحضان بيئة أخـــرى.

الهوامـــــــــش:

[1] شريفة القيادي: (1947 – 2014) مواليد طرابلس ، كاتبة و صحفية و أكاديمية ليبية راحلة ، لديها العديد من الإصدارات..
[2] هشام مطر: (1970) كاتب بريطاني ليبي مولود في أمريكا، لديه العديد من الروايات.
[3] كوثر الجهمية : (1984) مواليد طرابلس، روائية ومدونة ليبية، لديها العديد من الروايات.
[4] فرانز فانون فيلسوف اجتماعي فرنسي ، كان مناضلا في معركة التحرر من الاستعمار ، طرح في كتابه معذبو الأرض تحليلا نفسيا للآثار المدمرة للاستعمار على الفرد و الأمة .
[5] إدوارد سعيد منظر أدبي فلسطيني أمريكي ، ألف كتابه الاستشراق الذي ناقش فيه الاستشراق كظاهرة ثقافية يشوبها الكثير من التحامل الغربي على الشرق.
[6] ينظر لسان العرب. ابن منظور، دار صادر، بيروت، 1990م ، ص12-13
[7] ينظر الرائد . جبران مسعود ، دار العلم للملايين ، بيروت ،د. ت ، مادة آخذ ص58
[8] المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ،مكتبة الشروق الدولية، القاهرة مج1، ط4، 2004، ص8 مادة أَخَّرَ
[9] ينظر الآخر العربي ناظرا و منظورا إليه . الطاهر لبيب ، مركز دراسات الوحدة العربية ،بيروت ، ط1 ، ،1999ص54
[10] إشكالية الأنا و الآخر. ماجدة حمود ،عالم المعرفة ،المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ،د.ط 2013ص17
[11] صورة الذات و الآخر ،وجيه يعقوب السيد ، دار البشير ، 2018 ، ط1 ،ص78
[12] رواية هذه أنا . شريفة القيادي ، منشورات ELGA، مالطا ،1994، د.ط ،ص2
[13] نفسه ص3
[14] نفسه ص146
[15] نفسه ص194
[16] نفسه ص169
[17] نفسه ص176
[18] الآخر في الثقافة العربية . حسين العودات ، دار الساقي ،بيروت –لبنان ، 2010 ، ص19
[19] رواية هذه أنا ص27
[20] نفسه 110
[21] نفسه ص318
[22] رواية عايدون . كوثر الجهمي ، دار الساقي، بيروت ، 2019 ،ط1، ص7
[23] نفسه ص9
[24] نفسه ص49
[25] نفسه ص39
[26] نفسه ص166
[27] نفسه ص71
[28] نفسه ص73
[29] نفسه ص74
[30] رواية العقيد . كوثر الجهمي ، دار الفرجاني ، مصر ، 2022 ، ط1 ، ص45

[31] نفسه ص208
[32] نفسه ص206
[33]رواية عايدون ص78
[34] نفسه ص73
[35] نفسه ص20
[36] نفسه ص74
[37] الفتنة و الآخر. شرف الدين ماجدولين ، منشورات الاختلاف، الجزائر ، 2012 ، ط1 ص85
[38] رواية العقيد ص54
[39] الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، محمود قاسم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط ، 1996، ص7
[40] ينظررواية اختفاء . هشام مطر ،دار الشروق ، مصر، 2022، ط3 ،ص121
[41] نفسه ص134
[42] نفسه ص140)
[43] نفسه ص135
[44] إشكالية الأنا و الآخر. ماجدة حمود ، ص202
[45] رواية اختفاء ص225
[46] نفسه ص226
[47] نفسه ص238
[48] ينظر صور الآخر و قيم التعايش في السرد العربي المعاصر .دريس محمد ، بحث دكتوراه بالمركز الجامعي بمغنية ، الجزائر 2021 م ، ص91).